مجلة دراسات إنسانية واجتماعية / ج وهران02/ المجلد 09 ع 02/ خاص/ 16 فيفري 2020
ISNN : 2253-0592 EISSN: 2588-199X

قراءة في النّسق: من المرجعيّة الثقافية إلى تمثيل العالم

Reading in system: from cultural reference to world representation.

الباحث: عبد العزيز نصراوي [1]* د. رضا عامر [2]

[1] & [2] مختبر مناهج النقد المعاصر وتحليل الخطاب

معهد اللغة والآداب، جامعة عبد الحفيظ بوالصوف، ميلة/ الجزائر.

تاريخ إرسال المقال:2019/04/24 تاريخ القبول: 2019/05/25 تاريخ النشر:2020/02/16

ملخص بالعربية:

يعتبر النّسق في بنائه وانتظامه مرجعا هامّا في مجال النّقد الثّقافيّ؛ حيث إنّه يبحث في الذّات لاستكشاف أنساق جماليّة قادرة على صيّاغة الإشكاليّات. يستطيع أن يوازي الآخر، ويكسر الخطّية الزّمنيّة، الماضية والآنيّة، ليتجاوز القراءة الأدبيّة الأحاديّة إلى قراءة ثقافيّة متعدّدة.

نحاول في هذه الدّراسة، قراءة دلالة المصطلح بغرض تشكيل رؤية شاملة، في علاقته بفعل القراءة الثّقافية، وصولا إلى رؤية تؤهّل لفهم أنظمة تمثيل العالم.

كلمات مفتاحية: النّسق، القراءة الثّقافية، تمثيل العالم.

Abstract (English):

The system in its structure and regularity is an important reference in the field of cultural criticism, as it seeks to explore aesthetic patterns capable of formulating problems. It can parallel the other, and breaks the time line, past and instantaneous, to transcend the literary reading monotonous multi-cultural reading.

In this study, we try to read the term is meaning in order to form a comprehensive vision, in relation to cultural reading, to a vision that qualifies for understanding world representation systems.

Keywords: system, cultural reading, representation of the world.

1-مقدمة:

قبل تحليل العنوان الموسوم بـ" قراءة في النّسق: من المرجعيّة الثّقافيّة، إلى تمثيل العالم." نشير إلى أنّ مصطلح (النّسق) في بنائه وانتظامه يعدّ من بين المفاهيم المؤسّسة لمقولات النّقد الثّقافي في مختلف خطاباته، وآليّاته الإجرائيّة، رفقة مجموع الموارد المادّية التي اشتقّها من حقل الدّراسات الثّقافيّة بوجه عامّ؛ حيث إنّه تشبّع بمختلف الحمولات الفكريّة، والمخزونات المعرفيّة محاولا مواكبة ركب ما بعد الحداثيّة. ولعلّ أهمّ ما يتميّز به هو خاصيّة التّواري والتّخفي والمراوغة في البنية اللّسانيّة، تحت عباءة الجماليّ، بعيدا عن سلطة العقل والوعي والقيم الاجتماعيّة والعُرف والمؤسّسة، لذلك أصبح غيرَ دالّ أو مهمل في بنية الأدب الرّسميّ، لا لشيء إمّا أنّه لا يستجيب لسلطة المركز، أو أنّه لا يعكس ثقافة النّخبة. وفي المقابل تقوّض النصّ المؤسّساتي لأنّه بات لا

*- الباحث المُرسل.nesraoui@netcourrier.com

يستجيب لرغبات فعل القراءة، ولا يعكس الذّائقة الفنّية للجمهور المتلقّي، في ظلّ انهيار القيم والإيديولوجيّات، وأمام زحف العولمة أعيد تشكيل الخرائط السّياسيّة والثقافيّة، ورافق هذا التّحوّل تطوّر سريع في تقنيّات الإعلام والاتّصال، وهو ما دفع بنشوء وانبعاث ثورة فكريّة حداثيّة وما بعدَها، تبحث في الذّات، وتنقّب في المكان، لاستكشاف أنساق جماليّة قادرة على إعادة صيّاغة إشكاليّات جديدة، ورؤى تغاير الفكر الموروث، وذلك من خلال إثبات فكرة وجود الآخر، وعدم التّغافل عن كلّ ما هو هامش، لتتحوّل لاحقا، الخطّية الزّمنيّة الأحاديّة، إلى مسار يتخطّى معالم القراءة الأدبيّة الأحاديّة إلى رقعة أبعد وأوسع هي القراءة الثّقافيّة. هذه القراءة مكّنت النّاقد من ملاحقة القيم الفنّية في العمل الأدبيّ، وفي كلّ موروث من خلال عمليّة الحفر في المسكوت عنه، والتّنقيب عن كلّ نتاج دالّ، وغير دالّ، بتتبّع الرّصيد المعرفيّ للإنسانيّة وميراثها الحضاريّ، والذي لا ينبغي تجاهله أو تجاوزه بأيّ حال أو مسّوغ.

من هنا كانت القفزة الزّمنية جبّارة في تجاوزها لهيمنة القراءة النّقديّة بفكرة مركزيّة (اللّوغوس)، أو بفكر الثّنائيات الضّدّية، وتفعيل مختلف المناهج النّقديّة ما بعد الحداثيّة بآليات قادرة على تفكيكِ شفرات النّسيج النّصيّ، ورسمِ معماريّة الخطاب الذي يستجيب للرّاهن، ويعيد تحديد هُويّة للذّات: هُويّة تقبل الانفتاح على العالم الآخر. أي: إعادة هيكلة القراءة النّقدية الأدبيّة بعد أن فقدت سلطتها العقليّة، وتشبّعت بالجماليّات النّصوصيّة؛ التي لم تعد قادرة على كشف المضمرات كما القبحيّات، لذلك تبنّت قراءة ثقافيّة تسمح باندماج كلّ الأفراد الفاعلين داخل المجتمع، فصوّرت علاقاتهم وأنماط حياتهم. وخبراتهم، متّخذة من التّزاوج المعرفيّ الحاصل بين الدّراسات الثقافيّة والنّقد الثّقافي سبيلا لها، ومرجعا مؤطّرا لهذه العمليّة، وهو ما مكّن من تفعيل جهاز اصطلاحيّ غايته التّأثير في المتلقّي أوّلا، ودعوته إلى الاستهلاك القرائيّ ثانيا، ليس هذا فحسب؛ بل وإعادة استقراء هذه النّصوص وفق تمثيلات جديدة، تبِين عن طبيعة هذه الأنساق، ومدى فاعليّتها ورمزيّتها في مضامين الخطاب.

على هذا الأساس حاولنا، الوقوف على دلالة المصطلح في حدوده اللّغوية والنّقدية لتشكيل قراءة تفسيريّة متأنّية حول مفهوم (النّسق)، في علاقته بفعل القراءة الثّقافيّة، ثمّ إقامة محاورة جدليّة بينه وبين السّياق، وصولا إلى رؤية تعيد ترميم الذّات المتفاعلة مع التّاريخ والمتخيّل، وبذلك يحدث تمثّل أنظمة العالم. هذه الأنظمة تؤسّس لهويّة تستوعب جغرافيّة المكان، بمقولات توائم المناهج المعاصرة، والنظريّات المستحدثة وتؤهّلها لقراءة نصّ العالم المعقّد وفق قراءة تحفظ لكلّ أنواع الخطاب الخصوصيّة الشّكلية من جهة، وتعدّه ضمنيّا إلى عمليّة الكشف والتّأويل من جهة أخرى.

2- مفهوم النّسق:

وردت لفظة (النّسق) في اللّسان العربيّ بمعنى«: ما كان على نظام واحد عامّ في الأشياء.» [1] والنّحويون «يسمّون حروف العطف حروف النّسق [...]والكلام إذا كان مسجّعا، قيل له: نسقٌ حسنٌ.» [2] أمّا في اللّسان الحديث والمعاصر، نقول:« نسق الشّيء نسقًا: نظّمه [...] وناسق بين الأمرين: تابع بينهما ولاءم.» [3] ومنه « نسق الكلام: عطف بعضه على بعض ورتّبه. [...] وتناسقت الأشياء: انتظم بعضها إلى بعض.» [4] كما ورد من معانيه « الشّعر النّسق: هو المستوي الظّهور والحسن التّركيب [...] والنّسق اللفظيّ: التّرتيب النّحوي للكلمات في الجملة أو العبارة.» [5]

في الاصطلاح، يتقاطع مصطلح النّسق (Système) مع علم اللغة، والأنثروبولوجيا، وعلم الاجتماع، والنّقد الحداثيّ؛ وهو ما يجعل معانيه تتعدّد بحسب كلّ مجال؛ حيث استخدمه (فرديناند دي سوسير) (Ferdinand de Saussure) بقوله: « إنّ اللّغة عبارة عن (نسق) من العلامات يعبّر عن الأفكار.» [6] كونه « نظام ينطوي على استقلال ذاتيّ يشكّل كلا موحّدا [...] قريبا من مفهوم (البنية) (Structure) .» [7] بحسب ما يراه (كلود ليفي شتراوس) (Claude Lévi-Strauss) ، وهذه (البنية) تحكمها مبادئ: أوليّة الكلّ على الأجزاء، والمحايثة والوحدة الدّاخليّة والانتظام الذّاتيّ « على نحو يُفضي فيه أيّ تغيير في العلاقات إلى تغيير في النّسق نفسه، وعلى نحو ينطوي معه المجموع الكلّي للعلاقات على دلالة يغدو معها النّسق دالا على معنى.» [8]

أما في حقل الدّراسات النّقديّة والثّقافيّة، فإنّ الأنساق تتنوّع إلى «حقول ثقافيّة، كالنّسق الأدبيّ، والفنّي، والدّيني، والايديولوجيّ، والتّاريخيّ، والمجتمعيّ، والسّياسي، والاقتصاديّ [...] أو ما يسمّى أيضا بـ (الحقل)، بمفهوم (بيير بورديو) (Pierre Bourdieu) .» [9] ويتفرّع كلّ (نسق)، إلى« نسق علويّ، ونسق فرعيّ هامشيّ، ويسمّى كذلك بالمجزوءة. وقد يكون النّسق مغلقا أو مفتوحا أو

1- الفراهيدي: العين، تح: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، (د، ط)، (د، ت)، ج5 ، ص81.

2- ابن منظور: لسان العرب، مادة (نسق)، دار صادر، لبنان-بيروت، (د، ط)، (د، ت)، مج 10، ص352.

3- إبراهيم أنيس وغيره: المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية، دار المعارف، مصر.القاهرة، ط2، 1972، ج1، ص918.

4- أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، مصر.القاهرة، ط1، 2008، ص2203.

5- المرجع نفسه: ص 2204.

6- فرديناند دي سوسير: محاضرات في علم اللسان العام، تر: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، المغرب . مراكش، ط3، 2016، ص31.

7- أديث كيروزيل: عصر البنيوية من ليفي شتراوس إلى فوكو، تر: جابر عصفور، دار سعاد الصباح، الكويت. الكويت، ط1، 1993، ص291.

8- المرجع نفسه، ص289.

9- المرجع نفسه، ص2.

محايدا منعزلا حسب درجة تفاعله مع المحيط الخارجي.» [1] ويتّفق البنيويّون على أنّ (النّسق) يضمّ «أفرادا (فاعلين)، تتّحد علاقاتهم بمواقفهم وأدوارهم التي تنبع من الرّموز المشتركة والمقروءة ثقافيّا.» [2] مثلما يعبّر عنه (ميشال فوكو) (Michel Foucault) بأنّه بمثابة « علاقات، تستمرّ وتتحوّل، بمعزل عن الأشياء، التي ترتبط بها؛ (حيث) يعمل (النّسق) على بلورة منطق التّفكير الأدبيّ في النصّ، ويحدّد الأبعاد والخلفيّات التي تعتمدها الرّؤية.» [3] ومنه يمكن اعتبار (النّسق) عنصرا له نظام وانتظام ووظيفة، وهذا العنصر يترابط مع بعض العناصر المشتركة والمختلفة في ظروف تتحدّد فيها الرّؤية وتحقّق نوعا من الاستقرار والانسجام.

حاول (عبد الله الغذامي) أن يربط مفهوم (النّسق) بالثّقافة، معتبرا أنّ الأنساق الثّقافيّة أنساقا « تاريخيّة أزليّة وراسخة ولها الغلبة دائماً، وعلامتها هي اندفاع الجمهور إلى استهلاك المنتوج الثّقافيّ [...] (وتلك) هي لحظة الفعل النّسقيّ المضمر الذي لا بدّ من الكشف عنه.» [4] أمّا (عبد الفتاح كليطو) فيربطه بالمجتمع، إذْ يرى بأنّه عرفٌ اجتماعيّ يتخلّل الخطابات والنّصوص، بقوله: « هو مواضعة اجتماعيّة، دينيّة، أخلاقيّة، استيطيقيّة [...] تفرضها في لحظة معيّنة من تطوّرها الوضعيّة الاجتماعيّة والتي يقبلها ضمنيّا المؤلّف والجمهور.» [5] في حين نجد (ضياء الكعبي) يؤكّد على أنّ (أمبرتو إيكو)(Umberto Eco) أوجد « مصطلح (الوحدة الثّقافية) (Cultural Unit) للدّلالة على: أيّ شيء يمكن أن يُعرَف ثقافيّا ويشكّل وحدة مستقلّة، فقد يكون شخصا، مكانا [...] وهذه الوحدة الثّقافيّة لها دلالة سيميائيّة مدمجة في نظام، وقد تتجاوز هذا النّظام إلى التّفاعل بين ثقافتين.» [6] بينما يرى (تالكوت بارسونز) (Talcott Parsons) أنّ الثّقافة ذات طابع تفاعليّ، وهي نسق رمزيّ، « لمجموعة من الأفراد الذين يتفاعلون مع بعضهم البعض أو شبكة من العلاقات القائمة بين الفاعلين أو شبكة العلاقات التفاعلية.» [7] كما أنّها تعبّر عن التّصوّرات الذّهنية العقليّة والعقائديّة في الحياة الاجتماعيّة، وتفسّر استجابات الإنسان لها.

1- المرجع نفسه، ص7.

2- أديث كيروزيل: عصر البنيوية من ليفي شتراوس إلى فوكو، تر: جابر عصفور، ص411.

3- سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبنانيين، لبنان-بيروت، ط1، 1985، ص211.

4- عبد الله الغذامي: النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، لبنان . بيروت، ط3، 2005، صص79، 80.

5- عبد الفتاح كليطو: المقامات، السرد والأنساق الثقافية، تر: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2001، ص8.

6- ضياء الكعبي: السرد العربي القديم، الأنساق الثقافية وإشكاليات التأويل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان-بيروت، ط1، 2005، ص21.

7- سمير أحمد نعيم: النظرية في علم الاجتماع، دار المعارف، مصر-القاهرة، ط3، 1982، ص178.

3. النّسق: من المرجعيّة الثّقافية إلى تمثيل العالم.

1.3 . بين الظاهر والمضمر:

يعدّ (النّسق الظّاهر) حاملا لخطاب متعدّد الرّؤى، وهو وسيلة للكشف عن (النّسق المضمر) المتواري خلفه، باعتبار هذا الأخير يؤثّر في عناصر النّص ويتفاعل معه، حتّى يضمن ديمومته واستمراره. ويرتكز على بنيات جمعيّة مشتركة أفرزتها الثّقافات المشتركة أو المتباينة، وكذا الخطابات المتداولة داخل أنواع الأجناس الأدبيّة، بفعل المثاقفة والتّأثير المتبادل، وتعدّد المدارس أو المذاهب النّقديّة بحسب مرجعياتها الفكريّة والفلسفيّة، وهي كلّها تعبّر عن رؤية أو رؤى الإنسان لذاته وللعالم. وعليه كان الاهتمام بـ (المضمر) كونُه « بنية مركزيّة مهيمنة، دلالتها ليست مصنوعة من مؤلّف، ولكنّها منغرسة في الخطاب، مؤلّفتها الثّقافة، ومستهلكوها جماهير اللّغة.» [1]

يتميّز (النّسق المضمر) بالمراوغة والمخاتلة والإرباك، وقدرته على تخطّي الجانب الجماليّ والبلاغيّ في الأدب، « فهو الفاعل والمحرّك الخفيّ الذي يتحكّم في كافّة علاقاتنا مع أفعال التّعبير وحالات التّفاعل، وبالتّالي فإنّه يدير أفعالنا ذاتها ويوجّه سلوكياتنا العقليّة والذّوقيّة.» [2] ومن جهة أخرى، يشكّل « خطرا وتكمن خطورته في كونه كامنا؛ حيث يمارس تأثيره دون رقيب وهو يتوسّل بالعمل الثّقافيّ لضمان ديمومته وفاعليته.» [3] ممّا يجعلنا نعيد النّظر في الخطاب وتمثّله، باعتبار أنّ « كافّة أنماط الاتّصال البشريّ تضمر دلالات نسقيّة.» [4] وهذا ما يمنح القراءة في حدّ ذاتها «مبدأ أساسيّا من مبادئ النّقد الثّقافيّ، وأساسا للتّحوّل النّظريّ والإجرائيّ من النّقد الأدبيّ إلى النّقد ببعده الثّقافيّ.» [5] باعتبار أنّ أي نصّ أو خطاب هو حادثة ثقافيّة بالدّرجة الأولى. لذلك فإنّ الدّلالة النّسقيّة تكون« هي الأصل النّظريّ للكشف والتّأويل، مع التّسليم بوجود الدّلالات الأخرى، الصّريح منها والضّمنيّ، والتّسليم بالقيّم الفنّية وغيرها من القيّم النّصوصيّة التي لا تلغيها الدّلالة النّسقيّة.» [6] ومنه فإنّ كلّ نصّ يشتمل على (نسق ظاهر) له أبنيّة جماليّة ومجازيّة، و(نسق مضمر) غير واع تنغرس فيه رموز ثقافيّة وهو ما يصطلح عليه بالنّسق الثّقافيّ.

1- عبد الله الغذامي: النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ص79.

2- المرجع نفسه: ص69.

3- نادر كاظم: تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيّل العربي الوسيط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان-بيروت، ط1، 2004، ص11.

4- عبد الله الغذامي: النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ص65.

5- المرجع نفسه، ص،ن.

6- المرجع نفسه، ص78.

2.3 . من الثّقافة إلى القراءة الثّقافيّة:

مع ميلاد كلمة (الثقافة) (Culture) الدّالة على الطّقوس الدّينية (Cultes)، أو « الاهتمام بالفنون وبالرّوح.» [1] تطوّرت « لتعني العناية الموكلة للحقل وللماشية.» [2] منتقلة مجازيا إلى «تطوير كفاءة، أي: الاشتغال بإنمائها.» [3] وفي عصر النّهضة اتّخذت مدلولا فنّيا وأدبيّا « تمثّل في دراسات تتناول التّربية والإبداع.» [4] حيث استعملها (فولتير) (Voltaire) بمعنى: «تنمية العقل وغرسه بالذّوق والفهم وتزيينه بالمعرفة.» [5] وهي بشكل عامّ مثلما يرى (فوكو) (Foucault) بأنّها: «جملة أساليب الحياة.» [6]

ولمّا كانت اللّغة أساسا لتفكير أفراد المجتمع وللتّعبير عن أغراضهم وسلوكاتهم وثقافتهم وحضارتهم ورؤيتهم للعالم، فإنّها بذلك، تحقّق وظيفة التّواصل داخل هذا النّشاط الثّقافيّ لأنّ « اللّغة نسق من العلامات (signes) ولها قيمة ثقافيّة؛ لأنّ المتحدّثين يعبّرون عن هويتهم وهوية الآخرين من خلال استخدامهم لها. فهم يرون أنّ استخدامهم للغتهم رمز لهويتهم الاجتماعيّة، [...] (كما) ترمز لواقع ثقافيّ.» [7] ولأجل ذلك أُعتبرت الدّراسات الثّقافية بمثابة ذاكرة خلفيّة، ومرجعيّة فكرية تعكس أهمّ النّواتج الماديّة للعقل البشريّ طيلة انتقالاته الزّمنية والحضاريّة، إذ « ركّزت على الخطابات التي تنتجها المجموعات البشريّة المختلفة، والمتنوّعة على مستوى الثّقافة بين تلك الثّقافات، وعلى أنواع من الثّقافات الخاصّة والعامّة والهامشيّة.» [8] وهو ما حدا بالنّاقد أن ينتقل بتحليله وأدواته من النّقد الأدبيّ إلى النّقد الثّقافيّ، وهي نقلة نوعيّة في المفاهيم والآليّات، وهو ما جعل نظرة القارئ إلى النّص والمؤلّف، والسّياق تتغيّر. وبفعل هذا التّغير تحرّرت مرجعيّة النّص وآفاقه، ومن بنياته المغلقة التي انحصرت في قواعد بلاغيّة وجماليّة، لا تلبّي تطلّعات المتلقي، وبهذا

1- مراد وهبه: المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، مصر-القاهرة، ط1، 2007، ص230.

2- دينيس كوش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، تر: منير السعيداني، مر: الطاهر لبيب، المنظمة العربية للترجمة، لبنان-بيروت، ط1، 2007، ص17.

3- المرجع نفسه، ص،ن.

4- نصر محمد عارف: الحضارة – الثقافة – المدنية، دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، المركز العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا-أمريكا، ط2، 1994، ص19.

5- المرجع نفسه، ص20.

6- مراد وهبه: المعجم الفلسفي، ص230.

7- كلير كرامش: اللغة والثقافة، تر: أحمد الشيمي، منشورات وزارة الثقافة والفنون والتراث، إدارة البحوث والدراسات الثقافية، قطر-الدوحة، ط1، 2010، ص16.

8- ميجان الرويلي، سعد البازغي: دليل الناقد الأدبي، إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا، المركز الثقافي العربي، لبنان-بيروت، ط3، 2002، ص 30.

النّسق الثّقافيّ الجديد« تكسّرت مركزيّة النّصّ ولم تعد تنظر إليه بما أنّه نصّ، ولا إلى الأثر الاجتماعيّ الذي قد يُظنّ أنّه من إنتاج النّصّ.» [1] وهو ما يعطينا قراءة ثقافيّة تستند على جملة من « الإجراءات والنّظم الابيستمولوجيّة التي يمارس من خلالها القارئ فاعليته في الكشف عن سؤال المعرفيّ والثّقافيّ داخل النّصّ المقروء، وهي عمليّة معقّدة تتطلّب وعيا ثقافيّا، ومرجعيّا لدى القارئ والنّاقد [...] تسعى إلى رصد التّفاعل بين مرجعيّة النّص الثّقافية، والوعي الفرديّ للمبدع، فتنطلق من الخلفيّة الثّقافية للنّصّ مرورا بتأويل مقاصد المبدع ووعيه، وانتهاء بدور القارئ النّاقد [...] لأنّ النّص يحفل بالفجوات والفراغات والإشكاليّات الفكريّة ينبغي على القارئ أن يحلّها ويفكّكها، ويملأ فراغاتها على النّحو الذي يؤدّي إلى معرفة جديدة وغير تقليديّة، وليس من منظور جماليّ يُفترض أنّه ثابت، ويخضع لضوابط وممارسات محدّدة.» [2] تسمح بالانتقال من العُرف الاجتماعيّ إلى إلغاء العُرف المؤسساتيّ، وإعادة المكانة القيميّة للهامش ليوازي أو يضاهي المركز، وبذلك تحوّل النّسق من مجرد نمطيّة، إلى نمط يشمل« كلّ أنماط الإنتاج الثّقافيّ في علاقتها بالممارسات التي تحدّد اليومي، إيديولوجيا، مؤسّسات، لغات، بُنى، سلطة، وغيرها.» [3]

3.3 . من سؤال النّسق إلى سؤال السّياق:

تتداخل في تشكّل الخطاب مجموعة من الأنظمة، تحدّدها الوظيفة النّسقيّة، وهي تنتج بالضّرورة نظامين متعارضين: أحدهما ظاهر، والآخر مضمر، حيث يكون «المضمر ناقضا وناسخا للظّاهر ويكون ذلك في نصّ واحد، [...] يكون جماليّا وأن يكون جماهريّا.» [4] معبّأ بحمولات ثقافيّة مترسّبة، ومنغرسة في الخطاب.

مع توسّع السّياقات الثّقافيّة المساهمة في تداخل مختلف الأنساق وتشكّلها، صار كلّ «مضمر نسقيّ يلعب لعبته الرّمزيّة؛ حيث هو جبروت رمزيّ متحكّم، وبه تتشكّل الدّلالة النّسقيّة.» [5] وكنتيجة لهذه الخاصيّة أصبح ما يعرف بالنّص الثّقافيّ، هذا النّص الذي **يُحيل إلى (نسق) و(سياق). وبينهما تتشكّل علاقة جدليّة تفاعليّة.**

1- عبد الله الغذامي: النّقد الثّقافي، قراءة في الأنساق الثّقافيّة العربيّة، ص17.

2- عبد الفتاح أحمد يوسف: استراتيجيات القراءة في النقد الثقافي، نحو وعي نقدي بقراءة ثقافية للنص، مجلة عالم الفكر، الكويت-الكويت، ع1، 2007، صص163، 164.

3- إدريس الخضراوي: السرد موضوعا للدراسات الثقافية، تبيين للدراسات الفكرية والثقافية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، العدد 7، مج2، 2014، ص112.

4- عبد الله الغذامي: النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ص77.

5- المرجع نفسه، ص81.

إذا كان (النّسق) متّصلا بالتّشكّل عبر تراكمات تاريخيّة لمنظومة الأفكار والعلامات، ضمن سياقات تكون متّصلة بأنساق قيميّة وثقافيّة وهو ما يجعل النّسق المضمر يطفو ظاهرا متعاليا« عبر خطاب فاعل ولغة تؤطّر خطاب الفاعل أيضا، بل هو ممارسة لها خصوصيتها من التّغلغل والتّأثير والهيمنة في غفلة من الذّات.» [1] **كونه مندرج في لاوعي المبدع وثقافته وذهنه؛ حيث إنّه يرتبط بالعقل البشريّ ويستجيب لكلّ التّغيرات ولذلك لم يغفل النّاقد أو القارئ « حركته وتحوّلاته وانتظامه الدّاخلي فهو لا يفقد أساسه الجوهريّ ولكنّه يمتلك مرونة التّحولات ويستجيب لمقتضى المتغيّرات فيتكيّف معها دون أن يتلاشى جوهره.»** [2] فإنّ (السّياق) (Contexte) في المقابل: «**متشعّب واسع المعاني، يغوص في أعمق أعماق الحياة الإنسانيّة، في حين يتولّى النّسق التّنظيم المؤسّسي الفاعل، في حين يبرز السّياق كقوّة مؤسّسة**، [...] **والنّص سياق يحيل إلى دلالات متنوّعة تتشابك في منظومة متكاملة إلى أن تبلغ الدّلالة الكلّية، بينما النّسق تفرّعات النصّ الدّاخليّة تتحاور داخله وتتجاور، محدثة نقاشا عميقا، وربّما انتهتْ إلى دلالات متخالفة متضادّة، إنّما تصبّ في الدّلالة الكلّية النّهائية.»** [3] وبذلك يتحوّل النّص الثّقافي بسياقه ونسقه، نصّا « يباشر الحواريّة التي تحضر معها الرّؤية المتكاملة التي تستضيف الفلسفة والعلوم الإنسانيّة لتتوسّع في توليد الدّلالات المضمرة وتفكيك وتشفير الشّيفرات المحمولة بالدّوال، فلكلّ دالّ ظلّه كما قال (بارث) (Barthes). فالإبداع انزياح وتشكيل لما لا يتقولب؛ ولكنّه في تشكّله وتداوله وتلقّياته متّصل بسياق وبنسق، سياق التّاريخ ونسق المنظومة القيميّة والرّمزيّة والثّقافيّة للمجتمع.» [4]

ممّا يعني أنّ (النّسق الثقافيّ المضمر) متغيّر وغير ثابت، له خاصيّة التّحول والتّكيف وفق المتغيّرات، وللكشف عن المضمرات والظّروف المحيطة بها، ينبغي على النّاقد أو القارئ أن يراهن على اللّغة في محيطها الثّقافيّ والتّداوليّ، حتّى يترصّد « معناها الجوهريّ لا المعنى الظّاهر المزيّف، [...] لأنّه إيديولوجيّ ولأنّه وحده الذي يؤسّس للاتصال الجمعيّ ويؤطّر لنظام الخطاب داخل الثّقافة فوحدها إذن المقاربة اللّغويّة الثّقافيّة تسمح بفهم أعمق للأنساق اللّغويّة بماهيتها المزيّفة

1- عبد الفتاح أحمد يوسف: قراءة النص وسؤال الثقافة، عالم الكتب الحديث إربد، الأردن-عمان، ط1، 2009، ص87.

2- أحمد يوسف: القراءة النسقية، سلطة البنية ووهم المحايثة، منشورات الاختلاف، الجزائر-الجزائر، ط1، 2003، ص122.

3- محمد عبد الكريم الحميدي: السياق والأنساق، ما السياق؟ ما الأنساق، دار النفائس، الأردن-عمان، ط1، 2013، ص32.

4- الخير شوار: في النقد الثقافي، قراءة النسق والسياق، المدونة الشخصية، اليوم الأدبي، نشر بتاريخ 2012/01/17، موقع http://khierr.blogspot.com/2012/01/blog-post_17.html، تاريخ التصفح: 2019/03/10، في الساعة: 14:54.

المعلنة وبإيديولوجيّتها الحقيقيّة المضمرة.» [1] تنضاف إليها كفاءة النّاقد الذّاتيّة في معرفة الأصول البلاغيّة والإلمام بقوانين الخطاب، والقدرة على التّحليل المنطقيّ للدّوال والمدلولات المحتملة في ذهن ووعي القارئ ممّا يمكنه من ربط العلاقات، وتفسير الظّواهر وتأويل المعاني.

4.3. من النّظام إلى التّمثيل:

بعدما تحوّلت الأداة النّقديّة من قراءة الأدبيّ والجماليّ إلى أداة لنقد الخطاب وكشف أنساقه، لم يعد النّص الأدبيّ مجرّد حادثة ثقافيّة فحسب؛ وإنّما صار كلّ نسق يشتمل على علاقات وظواهر تهدف إلى تحقيق انسجام يتحدّد فيه مفهوم الوجود والموجود عن طريق أنظمة (التّمثيل) أو (التّمثل) (Représentation)، أي تمثيل العالم في صورة « فكرة تحتويها كلّ ذرة في ذاتها، لأنّه يُعتقد أنّ كلّ ذرة بمثابة مرآة تعكس في نفسها صورة العالم بأسره، فهي عالم صغير ينعكس فيه كلّ ما في العالم الأكبر.» [2] وعلى هذه الفكرة، انفتح النّص على ظواهر ثقافيّة وأنساق مضمرة، وأنظمة ثقافيّة تتّصل بالذّات والهوية، والانتماء، اللّغة والتّواصل، الوطن، الاغتراب، أساليب الهيمنة، والمؤثّرات الإيديولوجيّة، وغيرها من نظم تمثيل العالم « مثل الأنظمة السّردية، والإشكاليّات، والايديولوجيّات وأنساق التّمثيل، وكلّ ما يمكن تجريده من النّص. لأنّ النّص ليس هو الغاية القصوى، وإنّما غايتها المبدئيّة هي الأنظمة الذّاتية في فعلها الاجتماعيّ في أي تموضع كان، بما في ذلك تموضعها النّصوصي.» [3]

ووفقا لهذه الأنظمة المتعدّدة، والقراءات المتباينة تأصّلت مفاهيم جديدة لفهم متغيّرات العالم، وإعادة بناء استراتيجيّات معرفيّة لكلّ ما هو أدبيّ وغير أدبيّ، مثل « دراسة الإعلام والقضايا النّسوية والثّقافة الشّعبيّة ووسائل الاتّصال والثّقافات الدّنيا، والمسائل الأيديولوجيّة، والجنوسة، والحياة اليوميّة، وغيرها من الأنشطة المجتمعيّة الأخرى، نقدا للمناهج الأدبيّة التي انغلقت على الأدب بسنّها لقواعد جاهزة لا تراعي مشترطات المرحلة الأمريكيّة والأوروبيّة وما يعرفانه من تغيّرات على الصّعيدين المجتمعيّ والسّياسي.» [4] وهو ما جعلها تفتح جدالا وتقاربا وتضادّا بين أنواع الخطابات، الثّقافية والسّياسية، وبذلك تعدّدت التّأويلات « في منطقة الوعي

1- عبد الفتاح أحمد يوسف: قراءة النص وسؤال الثقافة، صص91، 92.

2- أزفلد كولبه: المدخل إلى الفلسفة، تر: أبو العلا عفيفي، عالم الأدب للبرمجيات والنشر والتوزيع، لبنان-بيروت، ط1 ، 2016 ،ص183.

3- عبد الله الغدامي: النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ص21.

4- آرثر أيزا برجر: النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسة، تر: وفاء إبراهيم، رمضان بسطاويس، المجلس الأعلى للثقافة، مصر-القاهرة، ط1، 2003، ص32 .

المعرفيّ والعقليّ.» [1] وصار لكلّ خطاب توريّة ثقافيّة، وتضمين، ومستويات، وأشكال ثقافيّة متنوّعة، تجسّد وجهة نظر المعتقدات والقيم والفئات وتشكّل « طريقة نظر إلى العالم، تنظيما أو تمثيلا للتّجربة [...] بينما ترمز الأساليب المختلفة للخطاب إلى التّمثيلات المتعدّدة للتّجربة، وأصل هذه التّمثيلات في السّياق التّواصلي الذي يكون فيه الخطاب مجسّدا.» [2]

تتجاوز (التّمثيلات) مجرّد تجسيد للأساليب إلى معنى: (الاستيعاب). أي استيعاب المجموعة الثّقافية-الاجتماعيّة الأقوى أو الأوسع للمجموعات الأخرى التي تدخل في الأولى حاملة ثقافتها ونمط حياتها والتي سرعان ما تختفي أو تتحلّل لصالح ثقافة ونمط حياة المجموعة الأقوى. وفي هذا الإطار يجري الكلام على تمثّل الأجانب والمهاجرين والهامشيّين ضمن المجتمع الأصليّ.» [3] وعليه يصبح تمثّل العالم استيعابا للتّصورات والمدركات، و« جعل الشّيء حاضرا في الذّهن، وهو ليس مجرّد إرجاع صورة بسيطة للواقع، وإنّما هو بناء لنشاط ذهنيّ؛ إذن التّصوّر هو ليس مجرّد إرجاع صورة مطابقة للواقع وإنّما هو إعادة بناء وتشكيل ذهنيّ لعناصر المحيط.» [4] لذلك يربط (هيجل) (Hegel) فكرة (التّمثيل) بما يحقّق امتلاك الواقع، باعتباره عالما يؤدّي إلى تجاوز ما هو واقعيّ نحو (المتخيَّل)، فإذا كان كلّ وعي متخيِّل يحتاج لأنْ يحافظ على العالم كذخيرة متخيّلة لمصلحته، فإنّه يحتاج في المقابل أيضا، لأنْ يجعل كلّ وعي بالعالم، وعيا تخييليا، وتمثّليا. ومنه يصبح التّمثل ضربا من العمليّات التي تدور حول كيفيّة النّظر إلى أنفسنا وإلى الآخرين، بعد أن تتمّ «حيازة الإدراكات أو استخدامها.» [5] بالنّيابة عن الآخرين، في مسائل متعدّدة، أهمها: الكتابة والقول، مما يعني مصادرة حق الآخر، في امتلاكه للتاريخ أو التعبير عن ذاته وهويته وثقافته. أمّا (ألتوسير) (Althusser) يرى أنّ (المتخيّل) هو عبارة عن نسق مترابط من الصّور والدّلالات والأفكار والأحكام المسبقة التي تشكّلها كلّ فئة أو جماعة أو ثقافة عن نفسها وعن الآخرين [...] ويتمّ ترسيخ هذه الصّور في الأحكام، في الوعي أو اللاوعي الجماعيّ بمرور الزّمن وبالقوة المادّية أو الثّقافية التي يتمتّع بها التّمثيل.» [6] ولأنّ المتخيّل عامل رمزيّ يساهم هو الآخر في حركة التاريخ، فقد تمّ بلورته كردّ فعل

1- المرجع السابق: ص81.

2- عيسى عودة برهومة: تمثلات اللغة في الخطاب السياسي، مجلة عالم الفكر، الكويت-الكويت، ع1، 2007، ص121.

3- سامي ذبيان وآخرون: قاموس المصطلحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، رياض الريس للكتب والنشر، بريطانيا - لندن، ط1، 1990م، صص 157، 158.

4- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج1، ص341.

5- نادر كاظم: تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، ص39.

6- المرجع نفسه: ص20.

على مرجعيّات النّظرية الماركسيّة، في دراستها لتاريخ البشر وتحديد المعايير المادّية التي تحكم علاقاتهم الاجتماعيّة، وتحدّد هويّتهم الثّقافيّة.

4. خاتمة البحث:

يتّضح ممّا سبق، أنّ النّقد الثقافيّ لم يُعِد لمقولة (النّسق) انتظامها داخل سياقات الخطاب فحسب؛ وإنّما ساهم بقدر وافر في تطوّر دلالة المصطلح، بدء بانغراسه في مضامين النّصوص، وتمظهره في مختلف الحقول المعرفيّة، ليتجدّد تفعيله، فيطفو متعاليّا في الأنساق الاجتماعيّة والثّقافيّة، وهو ما يكسب القراءة النّقدية بكلّ مرجعيّاتها وحمولاتها الثّقافيّة إطارا جديدا، في ظلّ أزمات البنيويّة، وعزلة النّص عن سياقاته الخارجيّة. مرورا عبر تيارات المناهج ما بعد الحداثيّة التي تمكّنت من إعادة بناء المقولات وصياغتها، من حيث العلاقات والجدليّات: كعلاقة النّسق بالثّقافة، والنّسق بالسّياق، وهو ما جعل من المقاربات النّقديّة تتّخذ مقاربات ومقارنات عديدة: بين القراءة الأدبيّة والقراءة النّقديّة، وتتبلور معها المفاهيم، التي تطرح إشكالات ملحّة فرضها الرّاهن الإبداعيّ، وتبنّاها التّصوّر الثّقافيّ بطرح أسئلة تتحدّد فيها ملامح هذه الهويّات، وهو ما شكّل نقلة شاملة على مستوى المدارس النّقدية تنظيرا وتطبيقا، لتنبعث منها أفكار كونيّة، وأطروحات جدليّة؛ تنطلق أساسا: من موت المؤلف إلى بعث الذّات، ومن موت النصّ إلى القراءة الثّقافيّة، ومن وظيفة النّقد الأدبيّ بجمالياته إلى وظيفة نقديّة ثقافيّة تحيط بالأنساق وأنواعها، ومرجعيّاتها، وكلّ هذه التّصوّرات لم تتوقّف عند حدود كشف المضمرات بل سعت لطرح رُؤى وبدائل على مستوى القراءة، والتّفسير، والتّأويل، وهو ما أنتج خطابا يستجيب لروح المعاصرة، ولعولمة الثّقافات المتداخلة، ولتفاعل التّكنولوجيات المتسارعة، وكلّها عوامل تسهم بشكل أو بآخر في إلغاء الحدود وتقويض المركزيّات، وكسر أفق التّوقّعات، ممّا يؤسّس لتوليد مفاهيم ثقافيّة: كمفهوم الذّات وتجاربها، وإمكانيّة هيمنتها على الآخر، ليكون النّتاج بعدها، هو حصول تفاعل أفراد المجتمع مع كلّ الثّقافات، من خلال إزاحة الفواصل بين المركز والهامش، وإعادة بناء الهويّات، وردّ القيمة الجوهريّة للتّراث الإنسانيّ عبر خطّية تاريخيّة وتخييلية تراهن على تمثيل أنظمة العالم.